الإسلام في بلاد المغرب

د. محمد الشريف قاهر[1]

تمهيـــــد

في أوائل القرن السابع الميلادي حدث عظيم يظهر للوجود، ونـــور مبين ينير العالم، وشمس ساطعة شملت بأشعتها الذهبية، وبدفئها الهادئ المريح كل فجاج الدنيا، لتملأها نورا ورحمة، وتبعث في أعماقها الأمل والرجاء في أن يعيش الإنسان خليفة الله في أرضه، في أمن وهدوء وسلام، هذا الحدث العظيم، وهذا النور الساطع، هو بعثة سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، المولود بمكة المكرمة عام سبعين وخمسمائة (570) للميلاد، والمبعوث رحمة للعالمين سنة عشر وســتمائة (610)، وكانت معجزته الخالدة خلود الحياة هي القرآن الكريم، الذي نزلــت الآيات الخمس الأولى منه بغار حراء، تأمر بالقراءة، والتعلّم، وتوجــه الإنسان إلى سعادة الدارين، ولا سعادة إلا بالعلم، والإيمان، والإحسان.

وتشاء الأقدار الإلهية أن يعيش محمد صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ثلاثا وعشرين سنة، يدعو أثناءها إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبعث برسله وجنوده إلى أمراء العرب وملوكهم، وإلى حكّام العالم آنذاك من فرس وروم، يدعوهم إلى عبادة الله، والاستجابة للحق، ونبذ التثليث وعبادة الأوثان، والسجود للنيران.

---

1. عضو المجلس الإسلامي الأعلى وأستاذ علوم القرآن والحديث بجامعة الجزائــر وتــاريخ التّشريع الإسلامي وأصول الفقه بالمعهد الوطني للقضاء -الجزائر.

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[1].

﴿قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو، يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يومن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[2].

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد، فهل أنتم مسلمون﴾[3].

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4].

وقبل أن يلتحق الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، عام ثلاثة وثلاثين وستمائة (610+23=633) نرى الإسلام قد انتشر في الجزيرة العربية كلها، وتابع الخلفاء الراشدون نشر الإسلام، والدعوة إليه، في العراق، وفارس، وبلاد الشام، ومصر، والمغرب، فانتشر جنود الله في الأرض يدعون إلى الإسلام، وأوغلوا في الفتوحات، وانسابوا في البلاد، وانقاد لهم الظفر والنصر، وكثرت الغنائم، وعم الرخاء....

---

1. سورة آل عمران، الآية 64.
2. سورة الأعراف، الآية 158.
3. سورة الأنبياء، الآيتان : 107، 108.
4. سورة سبأ، الآية 28.

مراحل الفتح الإسلامي للمغرب

تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب استغرق مدة طويلة تقرب من سبعين عاما ويعود ذلك إلى عدة أسباب[1] :

1. صعوبة البلاد طبيعيا، بما فيها من جبال، وسهول، وصحاري، لم يكن الجيش الإسلامي متعودا على هذه الطبيعة الجبلية الصعبة المتنوعة، وعلى المناخ الذي تمتاز به مرتفعاته من الثلوج والأمطار، والمياه، وشدة البرد، وقوة الرياح.

2. اشتداد حركة المقاومة للسكان الذين لم يفهموا رسالة الإسلام

3. تدخل بعض العناصر الأجنبية كالروم، ومساعدتهم للسكان بالمال والسلاح لمقاتلة الفاتحين.

4. إساءة بعض رؤساء الفاتحين إلى زعماء البربر، كما فعل عقبة بن نافع بالزعيم البربري كسيلة.

وإذا تتبعنا مراحل الفتح الإسلامي للمغرب نجدها قد مرت على سبع مراحل نحملها فيما يلي :

- **المرحلة الأولى : (20-28-هـ 641-648 م)**

ابتدأ الفتح الإسلامي للمغرب منذ سنة عشرين للهجرة عندما كان عمرو بن العاص واليا على مصر في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، حيث بادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة -بليبيا- ذلك تأمينا لحدود مصر الغربية من اعتداء بيزنطي، وتطبيقا لسياسة الاستمرار في الفتح نحو الغرب.

---

1. يذكر ابن خلدون في تاريخه : أن البربر ارتدوا بإفريقيا اثنتي عشرة مرّة و لم يثبت إسلامهم إلاّ في أيام موسى بن نصير، (كتاب العبر : 205/6).

فلما عاد عقبة من الحملة مظفرا، وبتقرير مشجع على الفتح، قرر عمرو بن العاص التعجيل، وسار على رأس جيش من الفرسان حتى قدم برقة ففتحها صُلحا، نظير جزية يؤديها أهلها إليه، ونجح في إدخال بعضهم إلى الإسلام، وواصل عمرو طريقه إلى طرابلس، وما جاورها من المدن الساحلية، وذلك في سنة اثنتين وعشرين (22 هـ) فأقبل بجيش كبير حتى دخل المدينة -طرابلس- ففتحها وغنم منها غنائم كثيرة، وفي نفس الوقت كان عقبة يتابع زحفه على المدن : فزان، وزويلة، وما بينهما حتى أصبح ما بين برقة وزويلة للمسلمين.

فلما رجع عمرو من طرابلس، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في مواصلة الفتح، ويطلب منه المدد، ومما جاء في تقريره: إن الله قد فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين إفريقيا -تونس- إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل[1].

ويبدو أن عمر بن الخطاب كان على علم بالأحوال السياسية لأفريقية، وبغدر أهلها وكثرة ثوراتهم على الولاة، ففضّل أن يقف المسلمون في الوقت الحاضر، ويوطدوا أركانهم على ما بأيديهم من مصر، والإسكندرية، وبرقة، وطرابلس، حتى تأتي ظروف مواتية فأجاب عمرا بقوله : " لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"[2].

وبعد استشهاد عمر وتولية عثمان بن عفان الخلافة، عزل هذا الأخير عمرا عن ولاية مصر، وأسندها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح،

---

1. ابن عبد الحكم : "فتوح إفريقية والأندلس"، ص 33، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1964.
2. المصدر السابق، ص 33.

عام أربعة وعشرين (24 هـ)، ويذكر ابن عبد الحكم في كتابه[1] "فتوح إفريقية" أن الوالي الجديد على مصر كتب إلى الخليفة عثمان يطلب منه الإذن في غزو إفريقية، لكونها قريبة من الولاية، فاستشار عثمان أهل الحل والعقد من الصحابة في الأمر، وقرأ عليهم تقرير والي مصر، فوافقوه على ذلك ومواصلة الفتح، فكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد يأمره بغزوها، وأمده بجيش عظيم فيه كثير من وجوه الصحابة منهم عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمان ابن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وبعد الرحمان بن أبي بكر، ومروان بن الحكم وغيرهم.

فلما وصل هذا الجيش إلى مصر، أعد عبد الله بن سعد جيوشه، وخرج على رأس هذا الجيش في أوائل سنة (28 هـ-648 م) لغزو إفريقية، وتعداد جيشه عشرون ألفا، فالتقى بجرجير حاكم إفريقية. من قبل الإمبراطور هرقل، وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة، ومعه مائة وعشرون ألف مقاتل (120000) وذلك بسبيطلة -بالأراضي التونسية اليوم- وتدور المعركة الحاسمة فيقتل جرجير، ويشتت شمل الروم، ويستولي المسلمون على حصن سبيطلة، ثم يعود ابن أبي سرح إلى مصر ومعه الغنائم الكثيرة، ويستغل هذا النصر العظيم في إقامة قاعدة للمسلمين في إفريقية. وبهذا تنتهي المرحلة الأولى[2].

---

1. ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله (توفي : 257 هـ-871 م) : "فتوح إفريقية والأندلس"، ص 33، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1964م.

2. المصدر السابق ص 34، 46.

- **المرحلة الثانية : (28-48 هـ 648-668 م)**

ومن عام ثمانية وعشرين إلى عام أربعين عاش المجتمع الإسلامي اضطرابات خطيرة، أوقفت الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا : واشتعلت نار الفتنة، واقتتل الإخوة الأشقاء، وسالت الدماء، واستفحل الداء، فقتل الخليفة عثمان في بيته بالمدينة المنورة عام خمسة وثلاثين (35 هـ)، وبويع علي ابن أبي طالب بالخلافة، وخرج عليه طلحة والزبير وعائشة بالعراق، وعصى معاوية أوامر الخليفة، وأعلن العصيان بدعوى المطالبة بدم الشهيد عثمان بن عفان، فكانت واقعة الجمل وحروب صفين، وانتهت بالتحكيم. ويقتل الإمام علي على يد عبد الرحمان بن ملجم، ومبايعة الحسن بن علي مكان أبيه، وتسليم هذا الأخير الأمر لمعاوية، حقنا للدماء، وجمعا للكلمة، وتوحيدا للصفوف، على شروط قبلها معاوية، والتزم بتنفيذها، فكان عام الأربعين عام الجماعة، وعام الأمن والسلام والرخاء، والصفاء.

وكان أول عمل قام به الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعد انتهاء الفتنة أن أعاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر للمرة الثانية، فلم يكد عمرو يستقر بمصر حتى عاد إلى استئناف غزواته إلى برقة، وطرابلس، فلما توفي عمرو بن العاص عام أربعة وأربعين (44 هـ-665 م) عن عمر يناهز التسعين سنة، رأى معاوية فصل المغرب عن ولاية مصر، وجعلها ولاية تابعة للخلافة بدمشق مباشرة، وجعل عليها أحد المقربين إليه الذين ساعدوه على الظفر بالخلافة بالرأي والمشورة، وبالسيف والقوة، هذا الرجل السياسي العسكري المحنك هو **معاوية بن حديج الكندي**[1]،

---

1. كان ابن حديج قد غزا إفريقيا الشمالية ثلاث مرات، الأولى مع جيش عبد الملك ابن مروان عام 34 هـ-654 م والثانية وكان الجيش بقيادته سنة 40 هـ-660 م والثالثة بقيادته كذلك سنة 46 هـ-666 م. انظر "فتوح افريقية"، ص 46، تعليق رقم 2.

بعث معه جيشا كثيفا، عدته عشرة آلاف مقاتل، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، وغيرهم من أشراف قريش.

فوصل معاوية بن حديج إفريقية عام خمسة وأربعين (45 هـ) ووجدها نارا تضطرم فنزل في موضع قريب من قرطاجنة يقال "قمونية" وبعث عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة إلى سوسة، حيث يوجد جيش الروم، فلما علم تقفور البيزنطي الوالي على إفريقية، ومعه ثلاثون ألف مقاتل، بقدوم الجيش الإسلامي ونزوله بإفريقية، أقلع بجيشه منهزما صوب البحر دون قتال، ودخل المسلمون سوسة، ثم وجه معاوية بن حديج أسطوله البحري إلى صقلية عام (46 هـ-667 م) فأقام بها شهرا، وغنم غنائم كثيرة، ثم عاد إلى إفريقية، ويمضي معاوية في فتوحاته فيفتح ثغر بترت، وجزيرة جربة، ولم يقدر له أن يواصل فتوحاته إذ جاءه العزل من الخليفة بدمشق وذلك عام خمسين (50 هـ)، وتعيين عقبة بن نافع الفهري مكانه. وبتولي عقبة بن نافع واليا على إفريقية يبدأ الفتح المنظم.

ويرى ابن عبد الحكم أن عقبة قدم واليا على إفريقية سنة ست وأربعين (46 هـ) وأنه بقي بها إلى عام واحد وخمسين حيث جاءه العزل من معاوية[1].

- **المرحلة الثالثة : (50-55 هـ 670-675 م)**

ولد عقبة بن نافع الفهري قبل انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بسنة واحدة أي في سنة 632 للميلاد، فهو من أكابر التابعين وأفاضلهم، فساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولى عام

---

1. انظر فتوح إفريقية ص 50، والصحيح غير هذا.

عشرين (20 هـ)، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عام ثمانية وعشرين (28 هـ)، فكان يرى بحكم تجربته الميدانية أن الفتح للمغرب لا يتم إلا بإنشاء قاعدة في قلب إفريقية، تكون مركزا لإمداد القوات الإسلامية الفاتحة، ومكانا آمنا لعائلات الجنود والقادة الفاتحين، وقد حقّق عقبة هدفه ببناء القاعدة المركزية للفتوحات الإسلامية بإفريقية، حيث أنشأ مدينة القيروان عام خمسين (50 هـ) فكانت حصنا حصينا منيعا أمام البيزنطيين، الذين كانوا يستخدمون الساحل مركزا لشن الهجمات على الفاتحين، كما كانت حصنا أمام البربر الذين يتمركزون في الجبال، والأماكن الوعرة، وهم يمثلون أقوى خصوم للفاتحين، وكانت القيروان بالإضافة إلى كل ما سبق مركزا يحمي الطريق من مصر و إليها.

ونرى عقبة ما كاد يتولى إمارة إفريقية عام خمسين حتى خرج غازيا فنزل بغدامس، وترك فرقة من جيشه هناك على رأسها زهير بن قيس البلوي، وتابع هو السير حتى وصل إلى ودان، فافتتحها، ومنها إلى قصور فزان فافتتحها، قصرا قصرا، ومن هناك انصرف عائدا إلى زويلة ومنها إلى قفصة فسقطت بيده.

ولم تطل ولاية عقبة على إفريقية أكثر من خمسة أعوام، فقد جاءه العزل من معاوية عام خمسة وخمسين (55 هـ-674 م) نتيجة لساعايات مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر، الذي كان يحسد عقبة على انتصاراته المتتابعة، والذي يرغب أن تعود إفريقية تابعة لوالي مصر، كما كانت قبلا، وتحقق هدفه، فعادت إفريقية تحت رعاية الوالي على مصر، وعزل عقبة، وأقام مسلمة بن مخلد على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار، وأوصاه أن يعزل عقبة في رفق، وأن يحسن معاملته، ولكن أبا المهاجر

لم ينفذ الوصية بل فعل الضد، إذ سجن عقبة، وأوثقه حديدا حتى أتاه الكتاب من الخليفة معاوية بتخلية سبيله وإشخاصه إليه، ففعل، فلما وصل عقبة إلى معاوية شكا له قائلا :

فتحت البلاد ودانت لي، وبنيت المنازل، واتخذت مسجدا للجماعة، وسكنت الناس، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي، فاعتذر له معاوية الداهية، ووعده برده إلى ولايته، ولكن لم يف بوعده له، وقال له : قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته[1]. وكان مسلمة يحسد عقبة على نجاحه وكان أبو المهاجر دينار يتميز عن عقبة بالدهاء، وحسن السياسة، وبعد النظر، فكان يرى مصانعة البربر واستمالتهم، وكسب مودتهم بالمعاملة الحسنة، وأنه يجب أن تتجه القوى لمواجهة الروم المستعمرين لإفريقية، عدو الجميع، فاستطاع بهذه السياسة أن يضم إليه أكبر زعماء البربر، كسيلة بن لمزم، الذي كان نصرانيا فاعتنق الإسلام، وأسلم معه كثير من قومه.

فنجح أبو المهاجر في سياسة استمالة البربر، حيث زحف من القيروان إلى المغرب الأوسط ففتح مواقع كثيرة في جبال الأوراس بمساعدة كسيلة، ومن أسلم من البربر، وواصل زحفه حتى وصل إلى تلمسان ففتحها، وشن هجوما عام تسعة وخمسين (59 هـ-679 م) على قرطاجة، ثم تركها بعد أن تخلى له الروم نظير ذلك عن الجزء الواقع جنوبي إقليم قرطاجنة[2].

---

1. انظر : ابن عبد الحكم : "فتوح إفريقيا"، ص 57.

2. انظر : الدكتور حسين مؤنس : "فجر الأندلس"، ص 40، الشركة العربية للطباعة والنشر الطبعة الأولى، القاهرة 1959 م.

- **المرحلة الرابعة : (60-64 هـ 680-684 م)**

تمضي الأحداث سريعا ويموت معاوية عام 60 هـ، ويتولى الخلافة بعده ابنه يزيد، وكانت نظرة هذا الأخير إلى عقبة نظرة إكبار وإجلال، لحسن بلائه في غزو إفريقيا، وأصدر قرارا يجعل إفريقيا ولاية مستقلة، متصلة مباشرة بدمشق، مقر الخلافة الأموية، وعزل أبا المهاجر دينار، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقيا للمرة الثانية، فيعود عقبة وكله عزم وإرادة لفتح ما تبقى من إفريقية، فقد قال لأهله وذويه عند وداعه : "إني قد بعت نفسي من الله تعالى، وعزمت على من كفر به حتى أقتل فيه، وألحق به، ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله"[1].

وفعلا كان صادقا فيما قال، فكان أول عمل قام به، هو القبض على أبي المهاجر دينار، وتوثيقه في الحديد، وتهديم المدينة التي بناها، وعودة الناس إلى القيروان التي بناها هو عام خمسين، فكان الجزاء من جنس العمل. ثم عزم على الغزو، وترك بالقيروان جندا عليهم زهير بن قيس البلوي، وانطلق عقبة بجيشه مكتسحا أراضي المغرب الأوسط، هازما من يعترضه من البربر والروم، حتى دخل المغرب الأقصى سنة (62 هـ-682 م)، وهو أول من دخله من الفاتحين المسلمين، ومازال يندفع بجيشه غازيا حتى بلغ البحر المحيط، فدخل فيه حتى بلغ الماء بطن فرسه، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : يا رب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين، مدافعا عن دينك، مقاتلا من كفر بك"[2].

---

1. انظر : ابن عذاري، الجزء 1، ص 24.

2. انظر : ابن عذاري، الجزء 1، ص 27.

ثم عاد أدراجه، فلما بلغ مدينة طبنة أرسل أكثر فرق جيشه من طريق غير طريقه، وأبقى معه خمسة آلاف مجاهد، وغرضه الاستيلاء على مدينة تهودة، وجعلها قاعدة حربية لقواته في منطقة الأوراس، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى وجد كسيلة بن لمزم يعترض طريقه بجموع هائلة من أنصاره، يتجاوز تعدادهم خمسين ألفا، وكان كسيلة قد فرّ من معسكر الجيش الإسلامي لسوء معاملة عقبة له. فأحسّ عقبة باقتراب أجله، فقال لأبي مهاجر دينار -الذي كان معتقلا عنده- : اذهب إلى القيروان مع من تبعك واتركني لقتال هؤلاء، فأبى أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه، فنزل جنود الله من دوابهم، وكسروا أغماد سيوفهم، ودارت المعركة الحاسمة غير متكافئة العدد والعدة، وفي "تهودة" سنة ثلاث وستين (63 هـ)، استشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما، واستشهد معهما عدد كبير من جنود الرحمان، وسقت دماؤهم أرض المغرب الوسط، فأنبت الله منها رجالا أحرارا يدافعون عن الحق، ويموتون من أجله، فكان منهم الأمير عبد القادر، وجنوده، والشيخ الحداد ومريدوه، والشيخ بوعمامة وأتباعه، ولالة فاطمة نسومر وأسودها، وأحرار ثورة نوفمبر 1954[1]، وأبطالها، وجنود السادس من ربيع الأول عام أربعة وسبعين وثلاث مائة وألف هجرية وأنصارهم.

وكان لاستشهاد عقبة وعدد كبير من جيشه أثر عميق في نفوس المسلمين، فقرر زهير بن قيس البلوي أن ينسحب من القيروان بجموع المسلمين إلى برقة، قبل أن يفاجئه كسيلة بجموعه الكاسحة، فأقام ببرقة مرابطا، حتى أيام عبد الملك بن مروان. وهكذا استولى كسيلة على

---

1. الموافق للسادس من ربيع الأول عام 1374 هـ.

القيروان عام أربعة وستين (64 هـ)، وضاعت بذلك جهود أربعين سنة قضاها جنود الله في غزو وفتح، وبناء وتشييد، ولكنهم لم يفقدوا كل شيء، فقد تركوا بأرض المغرب عددا كبيرا من البربر قد أسلموا وجوههم لله، ولم يفقدوا الإيمان بنصر الله لدينه، وإعلاء كلمته، وإذا كان للشرك جولة، فإن للحق جولات ودولة، وبقاء.

إيه يا أرض الغزاة الفاتحين وضريح الشهداء الخالدين
حدثي عني عقبة في جنوده يحمل النور ليـــل المدلجين
جاء للناس بشرى وهدى يفتح الدنيا ويهدي الحائرين
فإذا التكبير موصول الصدى في سهول ذا هبات وحزون
وإذا الإســـلام خفاق اللوا وإذا النصر حليف المسلمين[1]

"وباستشهاد عقبة انتقضت الأمور بالمغرب، وكان مرد ذلك إلى المقاومة الشديدة التي كانت تدبر بليل بين الروم وبين ابن الكاهنة "كسيلة"، والذي كان عقبة قد أذل كبرياءه، واتخذه أسيرا، ولم يستمع إلى نصح الناصحين بتأليف قلب هذا الرجل، ومصانعته، خشية غدره، وتأليف القبائل التي كانت تدين له بالطباعة، ومن هنا لا نخطئ إذا قلنا : إن عمل عقبة كان ناجحا من الناحية العسكرية. ولكنه كان فاشلا من الناحية السياسية.[2]

تذكر كتب التاريخ أنّ أبا المهاجر دينار لما علم بسجن، وإذلال وإهانة كسيلة نصح عقبة أن يتخذ سياسة الاستمالة واللين، وتأليف

---

1. الحركة الأدبية والفكرية بتونس لأستاذنا محمد الفاضل ابن عاشور رحمـــه الله تعـــالى وأسكنه فسيح جنانه.

2. محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي : "الأدب المغربي"، ص 23.

القلوب تجاه الزعيم "كسيلة" وقومه قائلا له : ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يصانع جبابرة العرب كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزه، قريب عهد بالكفر، فتفسد قلبه؟ توثق من الرجل، فإني أخاف فتكه[1].

فلم يلتفت عقبة لنصيحة أبي المهاجر دينار، واستمر في إهانة كسيلة وإذلاله، واستطاع هذا الأخير أن يفر دون أن يشعر به عقبة، وقد عرف الطريق الذي يسلكه في مسيره إلى القيروان، فاعترض طريقه، وكانت الكارثة في تهودة.

- **المرحلة الخامسة : (69-71 هـ 687-689 م).**

توفي يزيد بن معاوية عام(64 هـ-682 م) وخلفه مروان بن الحكم، ولكن عهده لم يطل إذ توفي بعد عام واحد من توليه الخلافة، وخلفه ابنه عبد الملك، وكان رجلا حكيما، وقد شارك في فتوح إفريقيا أيام معاوية بن حديج الكندي، عز عليه أن تضيع إفريقيا وأن تذهب جهود الفاتحين الأولين سدى، فبعث زهير بن قيس البلوي، خليفة عقبة على القيروان، بجيش كبير سنة (69 هـ-687 م) للقضاء على كسيلة، واسترجاع القيروان، وإنجاد من أسلم من البربر، ولما علم كسيلة بقدوم الجيش الإسلامي رحل من القيروان بجموعه الهائلة من البربر والروم إلى مكان حصين، يقع بين تبسة والقيروان يقال له "ساقية ماما" يقع على مرتفع من هضبة تتصل بجبل الأوراسي، فزحف إليه زهير بجيوشه، وكانت المعركة

---

1. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : "الاستقصاء لأخبار ملوك المغرب الأقصى" الجزء 1، ص 83، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954.

الحاسمة انتهت لصالح الجيش الفاتح، وقتل كسيلة، وتشتت شمل أتباعه، وعاد زهير إلى القيروان ونظم إدارتها، وأصلح ما فسد منها، وشرع في العودة إلى برقة، وفي الطريق اعترضه الجيش الرومي، ودارت بينه وبينهم معركة في درنة بالقرب من طبرق، استشهد فيها زهير سنة (69 هـ) واضطربت بلاد المغرب، وافترق أمر البربر، وظهرت الكاهنة بجبال الأوراس.

وتوقف الفتح لمدة أربعة أعوام لانشغال الخلافة الأموية بدمشق بقتال عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة بالحجاز. فلما قضى على ثورته عام (71 هـ-690 م) التفت الخليفة عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى إفريقيا، وجهز جيشا عظيما عدته نحو أربعين ألف مجاهد، وجعل على رأس هذا الجيش حسان بن النعمان الغساني، وذلك في سنة 73 هـ أو 75، أو 78 على اختلاف الروايات.

فلما وصل حسان إلى المغرب اتبع سياسة أبي المهاجر دينار، وهي سياسة تأليف القلوب، وتوجيه البربر ضد الروم المستبد الظالم، ونجحت هذه السياسة، وانضم إليه عدد ضخم من البربر، فزحف بهم وبجيشه على القيروان، وافتكّ قرطاجنة من الروم، ثم اتجه إلى الكاهنة، واشتبك معها في معركة حاسمة انهزم فيها حسان، وأسرت الكاهنة ثمانين من رجاله، وطاردت فلول المسلمين من منطقة الجريد إلى قابس، وتراجع الجيش الإسلامي إلى برقة، وهكذا خرجت إفريقيا من يد المسلمين للمرة الثانية، وانتهز الروم هذه الفرصة، فأغاروا على قرطاجنة سنة(78 هـ-697 م) فقتلوا من فيها، وسلبوا وغنموا.

- **المرحلة السادسة : (81-85 هـ 700-705 م)**

أقام حسان بن النعمان الغساني ببرقة ما يقارب من أربعة أعوام يعد العدة، وينتظر النجدة والأوامر من الخلافة بدمشق، فلما وصلته الإمدادات والأوامر عام 81 هـ زحف حسان بجيشه، ومن انضم إليه من البربر، قاصدا الكاهنة التي بعثت ابنيها ليطلبا الأمان لنفسيهما، فأمنهما حسان، أما هي فقررت أن تحارب حتى الموت، ومازال حسان يطاردها حتى التقى معها عند بئر الكاهنة، أو عند برقة، فهزمها هزيمة شنعاء، وقتلها، وسحق جيشها، هكذا قضى حسان على كل أثر المقاومة في إفريقيا —المغرب الأدنى- وما يسمى بتونس اليوم، وذلك عام (82 هـ-701 م) واسترد قرطاجنة، وأسس مدينة تونس، لتكون مدينة بحرية تقلع منها الأساطيل، وأنشأ بها دارا لصناعة الأسطول البحري، ودارا للإمارة، وثكنات للجيش، وقدر لهذه المدينة أن تكون أعظم ثغور لإفريقيا، بعد ذلك بثلاثين عاما، على يد عبد الله بن الحبحاب، الذي أقام بها أعظم جامع بالمغرب الأدنى، وهو جامع الزيتونة، وذلك 114 هـ.

وهكذا اتجه حسان بن النعمان إلى التنظيم الإداري على نحو ما فعله المسلمون في مصر، والشام، فدون الدواوين، وبعث العمال إلى سائر بلاد المغرب، وعمل على نشر الإسلام بين البربر، فوزع الفقهاء على سائر أنحاء المغرب لتعليمهم قواعد الإسلام، ونشر لغة القرآن، فأقبل البربر في حماس منقطع النظير على الإسلام، وأخلصوا له، وجند حسان منهم جنوده حتى أصبح أكثر جيشه من البربر، وهكذا فتح حسان المغرب بحسن سياسته، حربيا، ومعنويا، في آن واحد، واستطاع أن يحول المغرب إلى ولاية إسلامية قلبا وقالبا، ويبدو أن نزاعا وقع بينه وبين عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك، فأخذ عبد العزيز يضيق

على حسان، ويحد من سلطته ويكف يده على إتمام ما شرع من إصلاحات، وانتهى الأمر بعزله عن ولاية إفريقيا في أوائل سنة 86 هـ 706 م.

- **المرحلة السابعة : (86-90 هـ 707-711 م).**

لما عزل حسان بن النعمان عن ولاية إفريقيا، تولى مكانه "موسى ابن نصير" بأمر من عبد العزيز بن مروان والي مصر، وكان موسى من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة، وأخلصهم لها، وكان أبوه نصير قائما في حرس معاوية بن سفيان، ويقال إنه كان عبدا لعبد العزيز بن مروان، فأعتقه، فأصبح موسى مولى لعبد العزيز بن مروان.

ويذكر ابن عذارى أن موسى بن نصير افتتح ولايته بفتح قلعة زغوان[1].

وكان المغرب الإسلامي قد فتح أغلبه عند ولاية حسان، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى، فخرج موسى غازيا من إفريقيا إلى طنجة، فأخذ يقاتل البربر، ويفتح مدنهم، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز والخليفة عبد الملك.

فلما توفي هذا الأخير عام ستة وثمانين (86 هـ)، تولى الخلافة بعده الوليد بن عبد الملك، وبلغه ما تم من فتوح المغرب على يد موسى بن نصير، فعظمت منزلته عنده، واستقر أمر المغرب، ونظم إدارتها، وعين مولاه طارق بن زياد على حامية طنجة، التي يبلغ تعدادها تسعا وعشرين ألفا.

وأوصى موسى العرب المسلمين أن يعلموا البربر القرآن، وأصول الدين، فدخل البربر في دين الله أفواجا، ونصروه بسيوفهم، وأخلصوا له بكل ما لديهم، فكانوا الجنود الفاتحين للأندلس، وبقيادة زعيمهم وقائدهم طارق بن زياد وذلك في عام 92 هـ. على ما سنراه إن شاء الله في الحلقة القادمة.

---

1. انظر : ابن عذاري الجزء 1، ص 40.

مصـــادر ومراجـــع البحـــث

1. خير الدين الزركلي (1382هـ- 1976م) : "الأعـــلام"، قـــاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمســـتعربين والمستشرقين، ثلاثة عشر جزءا وثلاثة مستدركات، الطبعة الثالثـــة 1389 هـ- 1969 م، مطبعة كرستاتومس وشركاه، بيروت.

2. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر عماد الدين (774 هـ - 1373 م) : "البداية والنهاية"، أربعة عشر جزء في ثمانية مجلدات، منشورات مكتبـــة المعارف، بيروت 1410هـ - 1990م.

3. أبو زكرياء يحي بن خلدون (780هـ - 1378م) : "بغية الـــرواد في ذكر الملوك من بني عبد الوادي"، جزآن، تحقيق الدكتور عبد الحميـــد حاجيات المكتبة الوطنية، 1400 هـ - 1980 م.

4. ابن عذارى المراكشي (كان حيّا 712 هـ) : "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، أربعة أجزاء، تحقيق جماعة من الباحثين، الجـــزء (1-2) س كولان وليقي بروفنسال، الجزء (3) ليقي بروفنســـال. (4) الـــدكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى سنة 1967 دار الثقافة، بيروت، لبنان.

5. الشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي (توفي سنة 1945م) : "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، ثلاثة أجزاء، مطابع بـــدران وشـــركاه، بيروت، لبنان 1963م، الناشر : مكتبة النهضة الجزائرية.

6. الشيخ عبد الرحمن الجيلالي : "تاريخ الجزائر العام"، جزآن، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت الطبعة الثانية : 1384 هـ - 1965م.

7. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي سنة 310 هـ - 923 م) : "تاريخ الطبري : تاريخ الأمم والملوك"، ثلاثة عشر جزءا في ستة مجلدات، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1407هـ- 1987م.

8. ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (توفي 808 هـ - 1406 م) : "تاريخ العلامة ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر"، سبعة مجلدات، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثالثة، بيروت لبنان 1967م.

9. محمد علي دبوز (توفي 1388هـ - 1981م) : "تاريخ المغرب الكبير" ثلاثة أجزاء، مطبعة عيسى البابي وشركاه مصر، الطبعة الأولى :

1. 3 عام 1382 هـ- 1963م.

2. عام 1384هـ - 1964 م.

10. أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري) : كتاب "رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا"، جزآن، حققه البشير البكوش وراجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1414هـ- 1994 م.

11. أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (333 هـ - 944 م) :

"طبقات علماء إفريقيا وتونس"، تحقيق د. علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر 1982 م.

12. أبو العباس أحمد بن خالد النّاصري (توفي سنة 1315 هـ - 1897م) : "الاستقصاء لأخبار ملوك المغرب الأقصى"، تسعة أجزاء، تقديم وتعليق ، ولدى المؤلف جعفر ومحمد الناصريين، مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء 1954 م.

13. ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله (توفي سنة 257 هـ - 871 م) : "فتوح إفريقيا و تونس"، تحقيق وتقديم عبد الحميد أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1964.

14. البلاذري أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر البغدادي (توفي سنة 279 هـ) : "فتوح البلدان"، مراجعة وتعليق، رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1412 هـ - 1991 م.

15. حسن مؤنس : "فجر الأندلس"، الشركة العربية للطباعة والنشر الطبعة الأولى، القاهرة 1959.

16. ابن الأثير أبو الحسن علي بن عبد الكريم عز الدين الشيباني (توفي سنة 630 هـ - 1232م) : "الكامل في التاريخ"، ثلاثة عشر مجلدا، دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1385 هـ - 1965م.

17. ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (توفي حوالي 1110 هـ - 1698 م) : "المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس"، دار المسيرة لبنان، الطبعة الثانية 1993 م.

18. المقري أحمد بن محمد شهاب الدين التلمساني (توفي 1041 هـ 1631 م) : "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان بن

الخطيب"، ثمانية أجزاء، تحقيق الدكتور إحسان عباس (توفي سنة 2003 م)، دار صادر بيروت 1388هـ - 1968م.

19. الأستاذين محمد بن تاويت، محمد الصادق عفيفي : "الأدب المغربي"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية 1969م.

20- الأستاذ عبد الله كنون : "النبوغ المغربي في الأدب العربي"، ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبناني للطباعة والنّشر، الطبعة الثانية 1961 بيروت (عصر الفتوح 37-43).